أوهام بعيدة هى ، تلك التى تستولى على عجزة المسلمين ، فتزويهم فى نوافل متوارية ، وتهليل مختبئ ، وتكبير يصغرون معناه السامى ومرماه البعيد بحبسه بين الجدران ، وبتلفظه بالصوت الخفيض ، يظنون أنهم يسلكون أصعب الدروب لترويض النفوس .

جميل ذلك ، فرضاً لا يصح إسلام المرء إلا به ، أو زيادة تغرس التصديق وتعمق اليقين ، ولكن أعالى الجنان خلقت لتكبير عريض الأصداء ، قوى النبرات ، فى وجه كفر أو ظلم ، يعيد اعوجاج الحياة إلى استقامة .

فليس صعباً أن تفطم النفس عن مألوفاتها سويعات فى ذكر لله تعالى منعزل وتأمل ساكن ،

إنما الصعب أن تُكبِّر الأصـ

ـنام تُرعى وأمرها مأتيّ (1)

ذلك أن التكبير هنا يأخذ دلالته الكاملة ، صرخة فى وجه الأرباب البشرية ، يأمرها أن تترك مكان القيادة ، مثلما هو صرخة تنفذ إلى أعماق الضمائر المخدوعة ، يدعوها لوعى وإفاقة .

إن التكبير العالى لا يستطيعه غير مؤمن هانت عنده الحياة ،

---

(1) لعبد الوهاب عزام في ديوان المثاني / 79 .

وازدرى الظالمين ، واستيقن ضعفهم ، ولهذا كان صعباً على من لم يرسِّخْ قدمَهُ فى التوكل ، لغلبة الرهبة من الموت عليه ، وفزعه الذى يُضْخِّم فى نظره قوة الباطل ، غير راءٍ شواهد التاريخ ومواعظ الأيام .

وإن من كيد الشيطان أنه يخوف المؤمنين بما عنده من الأولياء الذين يسخرهم لإظهار الباطل (فلا يجاهدونهم ، ولا يأمرونهم بالمعروف ، ولا ينهونهم عن المنكر . وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان ، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا فقال : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

[آل عمرآن : 175] .

المعنى عند جميع المفسرين : يخوفكم بأوليائه ، قال قتادة يعظمهم فى صدوركم ، ولهذا قال : فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين : فكلما قوى إيمان العبد : زال من قلبه خوف أولياء الشيطان ، وكلما ضعف إيمانه : قوى خوفه منهم) [1] .

ولهذا فإن عجز العاجز دليل على ضعف معانى الإسلام فيه ، ولكن تنبثق القوة لما تخالط بشاشة الإيمان القلوب ، فتكون مقدمات محركة لها ، من حزم وإقدام وبدار ، ثم تستوى ، لتؤدى إلى نتائج من التعزز ، فتكتسب الحياة آنذاك سمتاً خاصاً من الطمأنينة ، تنطلق معها الفطر فى عمل معتدل .

---

(1) إغاثة اللهفان لابن القيم 1 / 130 .

وهذه الحقائق والأوصاف هى حدود الصورة التى رسمها إقبال للأخذ القوى للكتاب ، المتمثل بفتيان الحرية . . .

فدين الشباب الحر : بأس وعزمة

وإعلان قول الحق ، والمنطق الجرى(1)

وهذا الإعلان لقول الحق هو عند وليد أقرب مما يظنه العاجز مشقة وتبعة ، وإنما يقع موقع البشائر التى يتلهف لها الكون ، ورأى أن للانتفاض انعكاسات حتمية ، يتواصل بها العمل الإسلامى ، ويستمر تلقائياً ، ولذلك اتجه خطابه للمسلم أن يجعل الانتفاض أول عمله ، وطلب منه أن يحطم القيود . . .

حطّم قيود الذل وارفع يداكُ

وانشر على العالم نوراً هداكُ

يردد الكون بشوقٍ صداكْ

وترتفع راية قرآننا

قد بزغ الفجر وولّى الظلامْ

ورفرفت رغم أنوف الطغامْ

خفاقة راية قرآننا (2)

---

(1) مجلة (المسلمون)1/ 22 .

(2) حنين إلى الفجر / 39 .

ومصداق فراسته : هذه الصحوة التى تراها فى كل بلاد الإسلام ، وآلاف الشباب المؤمن والشابات المؤمنات ، فى المدارس والجامعات والمراكز الوظيفية ، يتمسكون بالفكر الإسلامى الصافى، فى أحلك ظروف الجبروت والقهر والفجور .

إنها آية من آيات هذا الدين القيم ، تملأ الصدر ثقة بالمستقبل .

ولقد احتشد شباب كثير فى سنوات سابقة مثل هذا الحشد فى عدد من البلاد ، ولكن كانت العواطف تشكل معظم رأس مالهم ، ونَقَصَهم الوعى ، فآذاهم الكافرون والظالمون ، وأخروا المسيرة .

لكنها اليوم صحوة ، لا اندفاعة حماسة ساذجة ، إذ اكتسب جمهور الدعاة الشباب ذلك الوعى الذى افتقد سلفهم بالأمس كثيراً منه ، تعلموه مما جرى لهذا السلف الطاهر ، فأصبحت الآمال أوضح من ذى قبل .

وكان محمود آل جعفر ، خلال حنينه إلى الفجر الإسلامى الوشيك ، فصيحاً فى الإبانة عن سمات الشخصية الجديدة لرجل العقيدة وصفاته التى تؤهله للانتصار فى الجولة الحاضرة مع الباطل، فمشى معه ، يقبس له من بهائه . . . .

مشى يحدوه منهجه الإلهى
أبىّ فى عقيدته يباهى
يخط طريقه يقظاً وقوراً
ويرقب سيره خوف المتاهِ

مشــــى والحــــق يمــــلأ أصــــغريـــه

حصـــيف الـــرأى مــاضٍ بانتباه [1]

فتأسرك فخراً واعتزازاً هذه المباهاة بالتوحيد الذى يدين به داعية الإسلام ، وتحدياته للإلحاد ، بلا تلعثم ولا استحياء ، ثم تزداد ثقة به وبأهليته وبمتانة خطته بهذه اليقظة ، وهذه المراقبة ، وهذه الانتباهة .

ولربما تظن أن الحذر يجمع هذه الصفات ، إلا أن مسحة من السلبية تقترن بالمعنى العرفى للحذر كأنها تنهاك عن كثرة إيراده فى قاموس الوعى ، إذا اكتسب مدلوله سعة تبدى ثغرة يلج منها المنهزم متفلتاً ، إنما هو (فن الحساب النسبى) أجدر بلغة الدعوة وأليق ، وأشهر فى مذهب البلاغة ، فإن رأى الداعية اليقظ ، فى الإفصاح الشعرى :

رأىُ تفـنَن فيه الريــثُ والعــَجلُ

فهو ينتظر متحفزاً مراقباً ، إذا كان الريث أولى .

ويقتحم ، راكضاً مقبلاً ، إذا كان العجل أولى .

وقبلهما ، وما بينهما ، وبعدهما : موازنات وتخطيط ، فيرى تفاضل المجالات فى الأهمية ، وضرورات مراعة الظرَوف ، وإحلال التكامل الموضوعى ، وتنسيق الحاجات المرحلية ،

(1) حنين الفجر / 39 .

والترجيح بين المصالح المتعارضة ، وحكم الواقع ، والإمكانيات المتوفرة دونما مثاليات حالمة .

إن هذا المنحى التحليلى لأبعاد العلاقات المتنوعة الرابطة بين الواقع والغاية يجعل كل خطة محلية ، فى كل قطر ، مأسورة إلى قواعد تتحكم بطبيعة المرحلة التى هى فيها من المسار ، وفى تطبيق نسبى لفنون العمل العامة ، بحيث يحصل تكيّف مرن مع البيئة ، تكون معه المحافظة على الأصالة ، وتمييز تردد مهمتنا بين الواجب الدعوى والاجتهاد الفقهى ، والإفلات من مخاطر الضرب التى تصاحب الانكشاف ، وتحديد مكانة آراء القادة والأتباع ، ومدى نفوذها ، مثلما يتم إحلال تكييف من نوع آخر لعوامل الإغراء بالتقدم والولوج لتناسب قدرات الجماعة الفعلية ورصيدها الحقيقى، فيكون التخلص من سلبيات محتملة ترافق السير السريع المتجاوز لما يوجبه هذا التناسب ، ويظهر هذا التكيف الثانى فى صور من التدرج فى الإصلاح ، والعناية بالتربية العبادية الخلقية ، وتجزئة الهدف ، وتأجيل استقطاب القوى الثانوية ، والانسحاب من المعارك الجانبية ، وربط تصعيد الصراع بنضوج الظروف المساعدة .

فهى عشرة قواعد إذن :

(القاعدة الأولى) : الأصالة واستقلال التقدير ، دون تقليد جزافى :

فإن التقليد عيب ، إذ هو تكرار حَرفى لا يقيم وزناً أو يعطى دوراً للفروق بين الأحوال المختلفة ، وهو غير الاقتباس الواعى الذى تأخذ فيه أشياء وتدع أخرى ، وتوسع وتضيق ، وتقرن به المكملات المساعدة والتشذيبات المستدركة ، إضافة أو نحتاً .

وأكثر ما يرد هذا التقليد فى صيغتين :

الأولى : تقليد حركة إسلامية أخرى ذات مرحلة متقدمة ، أو جزء آخر من الحركة فى بلاد أخرى توغل فى العمل ، والمقلد ما زال مبتدئاً أو متوسطاً ، فيبدأ من حيث انتهى الآخرون ، دون رؤية مراحل الاستعداد والتحضير ، ولا يسوغ لداعية تمر الحركة التى ينتمى إليها فى بلده بمرحلة التجميع والانتقاء والتربية أن يفكر بأساليب المظاهرات والضغط السياسى والمحالفات ، مما تستعمله الحركات القديمة للتواجد فى الساحة ، ولا يسوغ لمؤسس مكلف بالتشدد فى شروط اختيار دعاة القاعدة وصفوة الارتكاز أن يتساهل تساهل من أكمل ترتيب الصفوف واحتاج كثافة عددية ترجح كفته فى الصراع .

الثانية : تقليد بلاد أخرى ذات ظروف اجتماعية وسياسية وجغرافية تخالف ظروف بلادنا وتغايرها ، كداعية فى البلاد العربية يفكر بطرق الدعوة العامة لجمعيات الجاليات الإسلامية والاتحادات الطلابية الإسلامية فى أوروبا وأميركا ، أو يقيس عمله على عمل المسلمين فى الهند ، وهم أقلية بين أكثرية كافرة ، وأبعد مطامحهم أن ينالوا حقوقهم ويحافظوا على تدين عامتهم وأبنائهم

من خلال تأسيس مدارس وجامعات إسلامية وتنظيم جمعيات خيرية وبناء مساجد وإصدار صحف ثقافية ، وليس يخامر أذهانهم أن يقيموا دولة إسلامية ، لقلتهم بين السكان فى دولة علمانية .

بل ربما تؤدى الضغوط النفسية التى يتعرض لها بعض الدعاة العاملين فى بلاد يسودها الإرهاب إلى أن يفكروا بما هو أبعد من هذين التقليدين ، وتستبد بهم خيالات بناء قرى إسلامية تكون نموذجاً للحياة الإسلامية ، ما هم بقادرين على إنجازها مهما صغرت ، فى ظل الظلم المخيم على جميع أجزاء العالم الإسلامى بلا استثناء ، فضلاً عن تأدية هذه القرى إلى انعزال الدعاة وانقطاع تفاعلهم اليومى مع المجتمع من خلال انبثاثهم وانتشارهم فيه .

فإذا كانت هاتان الصيغتان من التقليد يحوطهما العيب لمجرد اختلاف المرحلة الخططية أو الظروف المحيطة ، فإن تقليد الأحزاب الكافرة فى أساليبها أكثر بعداً عن الصواب وأولى أن نربأ بأنفسنا عنه ، بل يجب أن ننقد أساليبها بمعيار شرعى من قِبَل دعاة فقهاء يعلمون حدود الحلال والحرام والشبهات ، ولا نقتَبس منها إلا ما لا بأس به شرعاً أو أمكن تخريجه على أحكام مراعاة المصالح واستثناء الضرورات .

وكما يعيب التقليد الأصالة التخطيطية يعيب الأصالة الفكرية الاجتهادية أيضاً ، وتضمر قابلية الاستنباط المفترضة لدى الداعية ، وتبرز هذه الظاهرة فى بعض البلاد التى تعتمد فى تثقيف دعاتها على من يزورهم من خارج ويتكلم لهم ، وهى خطة مفيدة ،

لكنها تولد معها ظاهرة سلبية تعدل الفوائد ، فإن دعاة ذلك البلد يصبحون أقل مطالعة وأقل وعياً للكلام الجاد الذى يفتقد الصنعة البلاغية والجمالية التى يحرص عليها المحاضر الزائر ، ويصبحون مقلدين يسمعون فقط ، لا يعرفون الاجتهاد والإبداع إلا قليلاً ، ولا يفهمون الكثير من الدروس التجريبية التى تأتى على لسان قدماء الدعاة ، فيزهدون بها .

إن من المهم لمثل هؤلاء الدعاة أن يعرفوا أن المعانى المهمة ليست هى الجديدة فقط ، والتى يحرص المحاضرون على اختيارها ، بل تكمن أيضاً فى اكتشاف أسباب ظواهر معروفة ، وتحليل أمر مجمل إلى جزئياته ، وبيان الفروق بين أمرين معلومين ، وبيان وجوه التشابه ، واكتشاف علاقة بين ظاهرتين معروفتين قد كان يظن الظان أن لا علاقةبينهما .

إن الترف فى التدريس يجعل التلامذة أهل حرص على النتائج الموضوعية فقط دون جذورها وضوابطها وأسبابها وشروطها ، ويصبحون أصحاب علم غير مبرمج ولا منهجى ، بل حصيلتهم شتات وأكداس متنوعة ، مسموعة أكثر مما هى مقروءة بتتابع ، ويصير احتفالهم بالمحاضرات وبفقه الدعوة وبما يطبع لهم مستنداً على عاطفة وتجاوب روحى أكثر من ابتنائه على معاناة وتفاعل علمى وتأملى ، ويكون لهم سمت اتكالى فى التفكير ، يبعدون معه عن هذه الأصالة المطلوبة .

وعلاج هذه السلبيات إنما يكون بتكثيف المطالعة الشخصية

المنهجية المتدرجة ، فى أبواب الفقه والتاريخ والاقتصاد والسياسة ، ولا ينهض الانشغال الكثير بيوميات العمل الحركى عذراً لتقليل هذه المطالعات ، فإن مصالح الدعوة مجتمعة ، وكما أن مصلحتها واضحة فى زيادة النشاط ، فإن مصلحتها أوضح فى الارتفاع بالمستوى الثقافى الفكرى لدعاتها ، ولا بأس من تحديد حجم بعض هذا النشاط من أجل تمكين الدعاة من حيازة هذه الثقافة ، وتمكينهم من التهام الكتب .

(القاعدة الثانية) : ترجيح تنفيذ متطلبات العمل الحركى على المساهمة فى تجديد الاجتهاد الفقهى :

فإن من أهم جوانب التكيف أن نعرف نسبة مراحل الدعوة مجتمعة إلى مرحلية أخرى أوسع ، ذلك أن هذه المراحل الثلاث المذكورة إن هى إلا أجزاء المرحلة الأولى من سير الدعوة إلى غايتها ، وهى مرحلة العمل للوصول إلى الحكم الإسلامى ، وستتلوها مرحلة ثانية هى المرحلة التطبيقية ، وصنع نموذج الدولة الإسلامية .

وهذا التقرير يدعونا إلى الإبطاء نوعاً ما فى مواطأة بعض الدعاة الذين يشاركون فى أعمال الموسوعات الفقهية ويحضرون المؤتمرات الإسلامية فيما يكون منهم من ميل قوى إلى إشراك الدعوة فى حملة تجديد الاجتهاد الإسلامى وتفاعل الشريعة مع الواقع المتطور وتحرر الفقه والإفتاء من قيود الجمود والتقليد التى أسرته إلى آراء الأقدمين .

ومما لا شك فيه أن تجديد وإحياء الاجتهاد يشكل اليوم عاملاً مهماً فى حياة الدعوة الإسلامية ، ويساعد على إيصالها إلى جماهير أكبر وأعظم ، وينقل كثيراً من المتشككين إلى اليقين ، ومن الواهمين إلى تلمس الحقيقة الناصعة الدالة على جدارة الإسلام فى أن يأخذ بيد هذا المجتمع المعقد الحديث ، وأن يقدم له حلولاً لمشاكله هى أحسن من حلول الاشتراكيات والديمقراطيات التى افتتن الناس بها .

هذا حق لا شك فيه ، ولكن الإسراف فى تصور مدى دور الحركة الإسلامية فى مرحلة سيرها إلى الحكم فى هذا التحرير للفكر الإسلامى والاجتهاد الذى يقتضيه يولد سلبين فيهما تعويق .

السلب الأول : أن الدعوة عندئذ قد تتحدد فى شكل تجمع فكرى مجرد يعطل طاقات كثيرة من طاقات الدعاة عن التجميع والتربية والممارسة السياسية ، فى الوقت الذى يشير فيه واقع المسلمين فى جميع البلاد إلى أن بقية الخير الموجودة فى كل بلد هى بقية كبيرة ، وأن بالإمكان الاستدراك ، بجمعها وتنظيمها وتربيتها ووضع الخطط لها ، لتصل إلى الحكم بسرعة ، وهذا الوصول سيجسد عند ذاك هذا النداء لتحرير الفقه الإسلامى من أسره ، ويوجد فى الدولة الإسلامية مثالاً واقعياً يكون أبعد تأثيراً فى إفهام الناس ، بل إن هذه الدولة ستتيح هى بإمكاناتها التى تضعها فى خدمة المجتهدين الجدد أن يدلوا باجتهادات بتيسر سبيل الإجماع عليها ، وأن ينطلقوا من معالجة واقع ورغبة حكم يريد أن يحل كل

ترسبات سنى الإنحراف والشرود الذى أصاب الأمة ، ويستبدلها بحلول إسلامية ، وعندئذ تكون حلولهم أقرب إلى الواقع الذى ستطبق فيه .

إن حرص الحكم الإسلامى على تطبيق نتائج بحوث الفقهاء سيزيدهم حماسة دون شك ، ويجعلهم أكثر صواباً ، وأعمق تفاعلاً مع القضايا التى يبحثونها ، وسيكون حكمنا أكثر توفيراً للوسائل المطلوبة وأجزل عطاء لمشاريع إحياء الاجتهاد ، كإنشاء المجامع الفقهية ، وعقد المؤتمرات الخاصة ، وتفريغ العلماء بعد استقدامهم من جميع أنحاء العالم ، وإتاحة فرصة التحدث العام لهم من خلال وسائل الإعلام المختلفة لتكوين رأى فقهى عام موحد يقارب الإجماع ، وما أشبه ذلك .

إن ظاهرة وجود بقية الخير تلزمنا أن نستغل معظم طاقات الدعاة فى الميادين التجميعية والتربوية ، وفى التخطيط وقيادة الجماهير ، فى كل هذه المراحل الثلاث ، لا أن نعطل طاقات كبيرة ونرصدها لهذا الاجتهاد وتحرير الفكر الذى يحول الحركة إلى مجمع فكرى يتباحث ويتناظر أكثر مما يعمل .

نعم ، لا بأس أن تخصص الحركة جماعة من الدعاة أولى الثقافة ممن تظن أنهم أهل للاجتهاد إذا تركوا إرهاق العمل اليومى المتشعب وتفرغوا للبحث ، ليجتهدوا ، ولينطلقوا عند تلبية حاجة الدولة التى ستقوم من معاناة حقيقية مع سير الدعوة ، ولكى لا يكون الاجتهاد بمعزل عن الحركة ، ولكى لا يقفوا على أرضية يوم

كثرة الحاجة لإفتائهم هي غير الأرضية التي ينطلق منها الدعاة ، ولكي لا يفتقدوا خلفية تنسق الأفكار عندهم وترتبه حسب أولوياتها التي يتعارف عليها الدعاة .

فنحن لا نشك في أن الحركة مدعوة إلى تخصيص بعض الباحثين من الدعاة بعدد قليل ، لنحصل على نموذج الفقيه المُعاني الفاهم للنفسية التي تسود الحركة ولموازينها وإتجاهاتها التربوية ، وبذلك يوجد التخطيط الفقهي المرتبط بأهداف القيادة السياسية غير المنعزل عنها ، بل ومن المحتمل أن يكون هؤلاء الدعاة الفقهاء أعضاء في القيادة نفسها ، أو في فروعها الاستشارية على الأقل .

إن جانباً كبيراً من الاجتهاد ينبني على قواعد المصلحة وسد الذرائع ، وسعة أفق الدعاة يسمح لهم بأن يبرعوا في التخريج وفق هذه القواعد لأبعد مما يصل إليه الفقيه السائب ، ووجود هؤلاء الدعاة الفقهاء هو وحده الذي يضمن الوقوف في وجه مدارس فقهية جديدة متساهلة قد يدفعها الدافعون لمصادمتنا ، ويكون أصحابها أجرأ في الكلام علينا ، لسماحتنا ، وربما كانوا اليوم في سكون أمام الطغاة .

إن الدعوة الصائبة إلى تجديد الفقه الإسلامي يتصورها البعض شرطاً للوصول إلى الدولة الإسلامية لا بد منه إذا أردنا كسب الناس وتجنيدهم في الدعوة ، والأمر أسهل مما تصوروا ، فإن هذا البعث الفكري هو حاجة العصر الحاضر من عصور الإسلام من بعد الجمود الفقهي في عصر الانحطاط الذي تاه في الفروع وأهمل

النظرة الشمولية ، ولكن فى الناس بقية باقية بعدد ضخم جداً ، تؤمن بالإسلام ، وتستطيع إعادة حكم الإسلام إذا تم اتحادها وتجمعها حركياً وسارت وفق خطة جماعية فى مرحلية موزونة ، ثم تضخم الدولة الجديدة فرص تجديد الفكر الإسلامى فى ظل الحرية التى ستوفرها له ، والإمكانات المالية والدعائية الضخمة التى ستضعها فى خدمته ، وليست مدة هذا السير لهذه البقية الثابتة من الناس إلى الدولة ووصولها لها إلا جزء صغير ضمن العصر الحديث الذى تكلف الحركة بتجديد الفكر الإسلامى خلاله ، وهذا يعنى أن مهمة تجديد الفكر أشمل من أن تكون من مهام الحركة الإسلامية فى فترة عملها الحاضر لاستعادة الحكم الإسلامى ، وإن استعادة الحكم الإسلامى أبسط من أن تحتاج لهذا التجديد احتياجاً حتمياً ، وإنما حاجتها :

إلى همة توقظ الراقدين وتقيم القاعدين من المؤمنين .

وإلى وعى يفتح أعين الساذجين .

وإلى شجاعة تتقدم بالخائفين .

وإلى تواضع يُرجع إلى الصف الخارجين .

إنها حاجتنا إلى البراعة فى إستغلال بقية المؤمنين الباقية فى كل قطر من قبل أن تشيخ أكثر إنها حاجتنا إلى البراعة فى استغلال بقية المؤمنين الباقية فى كل قطر من قبل أن تشيخ أكثر مما هى حاجتنا إلى فكر إسلامى متحرر .

فالجيل الذى نراه الآن فيه هذه البقية الخيرة ، وإذا أبطأنا ورودنا لها بضع سنين قليلة فقد تشيخ وتصبح مشاركتها فى الأحداث قليلة ، وينشأ جيل أبعد عن الإسلام .

فاستباق الأيام ، والحيلولة دون تحول الرضوخ الحاضر عند الناس لحكم الجاهلية إلى ذل ومهانة تنسيهم معنى الحرية الفطرية والإسلام الموحى ، يدعوان إلى رصد أكبر كمية من الجهد للتجميع والتربية ، وإلى تقليل الجهود التى تحاول إعطاء إفتاء فى كل شكل مستجد من أشكال التعامل يأتى به التطور .

ألا تحصى معنا كم من مسلم راقد يصلى معنا ، من المسجد إلى البيت ، ثم إلى المسجد ، ولم تمسه يد الدعاة بعد فبقى منعزلاً أو ليس العمل معهم أولى من المتفلسفة المتشككيين ؟ .

أولا تحصى كم من شجاع يتألم لمصائب المسلمين ، لكنه يرضى بعمل مغلف بواسطة الجمعيات الإسلامية واحتفالاتها لقلة وعيه ؟ .

وحتى الذين ينسحبون ونظنهم جبناء : ربما هم ليسوا كذلك ، وليست الشجاعة بظاهرة عند الشجاع دائماً ، فإن هناك من الشجعان من يفهم أن سيطرة الطغاة قوية ولا يمكن إزالتهم ، فيبقى حذراً ، ولو أفهمته ضعفهم وما هناك من مبالغة فى تقدير أمرهم لا ستسهل العمل ، فهو مثل سائر بليل فى صحراء ظلماء ، يرى شبحاً أسوداً من على بعد ، فيحذر ويكتم أنفاسه ويقف ،

خوفاً أن يكون من اللصوص والأشقياء ، مع ما عنده من الشجاعة، وربما كان ذاك السواد لمسافر آخر استولت عليه نفس المشاعر ، ولذلك فإن وصف الواقع بدون إسراف ومبالغة يساعد فى تشجيع كثير من الناس الذين ينعزلون عنا الآن ، بما نريهم من اضطراب الباطل واهتزاز بنيانه .

إن تخلف الفكر الإسلامى ، وعدم اتساع باب الاجتهاد الجديد ، وعدم وجود دستور إسلامى تتبناه الحركة ، كل ذلك سيضع الدولة الجديدة أمام مهمة صعبة فى أول أيامها ، ونكران ذلك يعتبر مغالطة ، ولكن هذه الصعوبة ليست أكبر من بقاء الحركة الإسلامية بعيدة عن الحكم نفسه ، تتلقى الضربات من الأحزاب والطغاة ، وكل تجميد لعدد أكبر من الدعاة فى مهام الاجتهاد يعتبر تمديداً لهذا البقاء البعيد عن الحكم ، وتكون آثار بحوثهم فى عملية التجميع أقل حجماً من آثار نشاطهم اليومى كدعاة منبثين فى أوساط الشعب ، وقد أوجبنا من قبل فى بيان المسار وسنوجب من بعد على الحركة أن تطرح على الناس آراءها فى قضايا الساعة وتقترح حلولاً إسلامية للمشاكل الإقتصادية والسياسية والاجتماعية ، ولكن هذا الإيجاب ينبغى أن يفهم بحدوده الوسطى دون إسراف .

وعلينا أن ندرك أن جو الحرية هو شرط لا بد منه لاكتمال هذا الاجتهاد المبتغى حتى مع إمكان قيام بعضه والبدء به فى مثل هذا الجو الخانق الذى يسود معظم بلاد الإسلام ، وجو الحرية ستوفره

الدولة الإسلامية أنّى قامت بأبهى صوره ، وهذا يدعونا إلى رصد الجهود ، حتى جهود أصحاب الكفاية الاجتهادية ، لإقامة الدولة ببقية الخير الكافية فى أعدادها لو انتظمت ووعت وجسرت ، وإنها لمهمة سهلة مهمة هذا الوصول وهذه الإقامة تصعبها ألفاظ من يتحمس لنهضة الفقه والفكر .

أما السلب الثانى الذى قد يولده اشتراكنا بإسراف فى حملة تجديد الاجتهاد فإنه يكمن فى كثرة الإلتهاء بهذا الفقه الجديد ، وإحداث موجة كبيرة من الخلافات والتشعبات ، قبولاً ورفضاً لاجتهادات المجتهدين ، تؤدى إلى إلهاء العاملين أنفسهم ، وليس إلى مجرد تعطيل طاقات عن التجميع والتربية بأعمال الاجتهاد .

لا شك أن الحجر على العقول غير ممكن ولا مستساغ ، وإن خلاف الفقهاء يطور فقههم . ولكن ندع ذلك إلى فترة السعة .

وعلى هذا فإنه لا يسعنا إزاء هاتين السيئتين اللتين يولدهما الإسراف فى الحماسة فى إحياء الفقه إلا أن ندعوا إلى فهم واقعى لهذه الرغبات الصادقة على ضوء حاجتنا الحقيقية المرحلية وطاقتنا البشرية التى نستطيع توفيرها .

إن الذى عندنا الآن من إنتاج فكرى ومجاميع مؤلفات تكاد وتقارب أن تكفى لتلبية حاجات سيرنا للوصول إلى إقامة الحكم الإسلامى ، وتعتبر المكتبة الإسلامية أوسع مكتبة فكرية ، وليس هناك حزب ينافسنا يملك مثل تراثنا الفكرى ، وفى الإنتاج المنتظر

من قبل هؤلاء القلة من الدعاة الذين أقررنا بوجوب توجيه جهودهم لتحرير الفكر ما يتكامل به رصيدنا الحاضر ، وللدولة الإسلامية يوم قيامها رب يحميها ويوفر لها من يسد حاجتها إلى تفصيلات دستورية أو إفتاء تعاملى ، والذين يشردون الآن عن الحركة الإسلامية لمجرد نقصان هذه التفصيلات والفتاوى لن تحتاجهم الحركة بإذن الله ، بما أبقى الله تعالى لها من بقية الخير التى لا يخلو منها بلد .

هؤلاء قوم إيمانهم ميكانيكى لا ينبعث عن قلب ، وإنما هم فى عقلانية مجردة ، وإذا اقتنعوا بمسألة فقد لا يقتنعون بأخرى مهما اجتهد المجتهدون ، ولسنا على استعداد لنصرف أطناناً من الكلام كى نحوز رجالاً من هذا الصنف ، وأحكامنا واجتهاداتنا الأن كثيرة ، وهى واضحة ، ونرجع إلى قرآن كله حق ، ومع ذلك فإنهم لا يأتوننا ، أفيأتوننا ببضعة اجتهادات نضيفها ؟؟

كلا ، وحاجتنا الفعلية ليست هى فى هذه المهمة الصعبة المحدودة الجدوى ، وإنما فى كتب تربوية وسياسية وتخطيطية جديدة ، توسع مدارك الدعاة ، وتنقلهم إلى الوعى ، وتختصر لهم الطريق .

(القاعدة الثالثة) : إخفاء الحركة لبعض حقائقها ، وعدم استعراضها لكل عضلاتها .

إذ من المهم أن يفقه دعاة الإسلام أنهم ليسوا فى مسابقة الكمال الجسمانى ، وأن الذين حولهم لا يحملون آلات تصوير

لتخليد منظر البنية القوية التى يملكونها ، وإنما يحملون آلات فتك وتعذيب .

تتكرر اللذعات ، ولا تدرى لماذا لا يكون الإتعاظ !

وإن مراقبة مسلك الكفر يوضح تواصى أطرافه ، فى مدى عشرات السنين على ضرب رؤوس الحركة الإسلامية ، كلما أينعت ، بإعدام أو اغتيال أو سجن أو تهجير ، ويفتعلون شعاراً مزخرفاً تذبح عنده رقاب الدعاة .

وقدِ تقودنا الحماسة إلى تقرير فشل أعداء الإسلام فى قهر الدعوة والقضاء عليها ، وأنها تخرج من كل جولة ، قوية ، رافعة الرأس ، ولدعاتها ثبات أرسخ ، وعزائم أحَرّ اتقاداً ، ولقد نقول إن الكفار اليوم يبدلون أساليبهم فى محاربتنا ، ولم يعد الإرهاب ينفعهم .

وذلك صحيح إلى حد ما ، لكنها ليست الصحة المطلقة ، فإن الكفر لا يستطيع الإسراف فى الدماء وتوسيع السجون ولا يهمه ذلك كثيراً ، بل يهمه أن يحرم الدعوة من قادتها الوعاة ودعاتها المجربين ، الذين تفقهوا فى الدين وعرفوا خفايا السياسة ، واكتشفوا طريق العمل المؤثر ، لتبقى البقية فى لذة المشاعر والهتاف ، والتكاثر والعواطف ، والتعارف والتحادث ، ويضمحل العمل الهادف ، وتلك صورة لا تشكل خطراً على الكافرين والظالمين ، فإذا ما تكررت التجربة وأينعت ثمار جديدة : استؤنف القطاف .

من أجل ذلك وجب علينا الاتعاظ بمدلول هذه الظاهرة المستمرة ، والإسراع فى تحوير طريقة العمل فى البلاد التى ضاقت فيها الحريات وتتعرض اليوم لإرهاب ، بتوجيه من انكشف للعمل فى مجالات النشاط العام ، وتكوين طبقات جديدة منتقاة بمقاييس نموذجية دقيقة ، تتخفى لتنبث فى هدوء إلى مراكز التأثير وتتجرد للاتصالات الشخصية الثنائية ذات المردود التربوى المركز ، ويتم تحويل الأعباء ووضعها على عاتق هذه الطبقات بالدرجة الأولى ، فيكون الثقل القيادى فيها ، وتظل تتعالى على مغريات العمل الظاهر ، وتزهد بما فى أيدى الناس ، وتتمرد على أعراف البطر ، إلا ما جاءها منه أخذته ، دون أن تتكلف السعى الكثيف له ، حتى يأذن الله تعالى برفع الغمة عن الأمة .

جمهرتان متلازم سيرهما ، تكمل إحداهما الأخرى ، بوجودهما معاً يتم التوازن ، ويبرق نور أمل الوصول .

الأولى : تمهد ، وتصنع الظروف الحسنة ، وتثبت الأخلاق ، وترفع الهمم ، بالتأليف ، والكتابة الصحفية ، والوعظ ، والخطابة ، والمحاضرة ، وخوض الانتخابات ، والاندماج مع الجمهور ، فى المجالس والمساجد والمدارس والمعامل والأرياف ، ورعاية النساء والأشبال .

والثانية : تستثمر فى سكون ، وتلتقط بفراستها كل ذى عين تومض ، وفؤاد يلتذع ، وظهر نحو الترف مُدار ، وقدم إلى الجنة ممتد ، وتغلق وراءهم الباب ، حتى ينساهم الذاكرون ، فإذا

غابوا : لم يفتقدوا ، وإذا حضروا : لم يعرفوا ، وليس لهم من بعد إلا خروج واحد ، يوم يتضمخون بالأحمر القانى ليرتفع اللواء ، أو قبل ذلك بقليل ، يوم يبلغ التحدى ذروته ، فيخرجون لقيادة الناس .

إن خلاصة التقويم للتجارب الكثيرة لا تجيز أبداً التفريط بإحدى الطائفتين ، فإن فقدان الأولى : يقسى قلب الثانية ، ويجنح بها إلى التطرف والمجازفات وتكوين الجيوب ، فإن الممارس القديم فقيه وإن انكشف ، أمين وإن خالطه الترف ، وانتفاء الثانية يذهب بهيبة الأولى ، فيستضعفها الظالمون ، ويؤذيها المتجبرون ، وكل تحمس زائد لتصوّر صواب الاقتصار على نمط واحد فقط من العمل فى البلدان المكبوتة يعتبر تجاهلاً لدلالة الواقع لا يساعده النظر الحصيف .

ونلاحظ هنا .... بصورة خاصة أن سلبيات تأخر سير الحركة الإسلامية بفعل الضربات والمحن الشديدة قد اختلطت بنتيجة إيجابية متمثلة فى تكوين جيل من العناصر المجربة العميقة الإيمان الواسعة الاطلاع ، وكثرت العناصر الراكزة ، وحصل تعادل فى بناء المجموعة يمكن أن يستثمر بنجاح ، بينما كان سير الحركة قبل المحن معتمداً على علو الهمم وفرط الحماسة ، أكثر من اعتماده على الوعى ، بل ما كنا لنقع فى المصاعب لولا فقدان التجريب ، وفى هذه الحقيقة ما يقنعك بأن الاستدراك الذى نريد أن يقوم به الخط الثانى لا يمكن أن ينفصل أبداً عن المعادن الأولى التى عركتها المسيرة الطويلة .

إن التأمل الرزين يبدى خطأ الاقتصار على الخط الحذر ، إذ كيف تتربى العناصر المؤمنة فى الخطين بدون هذه الوسائل التربوية التى وصفتها خطة الانسياب ؟ ولماذا تتعمد إهمال أناس من الأخيار ولا تضعهم فى تيار الضغط وإن لم يكونوا أهلاً لعمل فردى صامت طويل ويلزمهم التحريك الجماعى ؟ إن تجربة الثورة الإيرانية على الشاه تعطى قيمة كبيرة لأهمية التجميع الواسع للعناصر التى هى دون مستوى الانتماء الملتزم وإدارتها فى فلك الدعوة ، ولا تستطيع إعدادها بغير إسماعها الكلام بمختلف فنونه ووسائله ، وبغير الحرف المطبوع ، وهما واجب الخط الأول .

❑ نظرية الالتفاف

ولكن بالمقابل علينا أن نفهم أن مثل هذا التجمهر الشعبى الواسع لا يسوغ إيجاده قبل اكتمال خلفية له من الدعاة الباذلين بصمت ، وإنما هو مرحلة متقدمة فى الخطة وعمل مؤجل لا بد أن يسبقه إتقانٌ لسير منضبط طويل ، ويجب أن تستمر سيراً فى الخط الثانى المناور ، فى حالة من الكتمان التام ، تحفظ به الوعاة من الضربات ، وتسلّهم من قسوة المفاجآت ، ومكايد المخابرات ، وإلا التقط الطغام الرؤوس وكنت كمن يقدم إلى جائع طبقاً فيه أجود الثمر ، فينكب عليه بنهم ، وتمتد يده إلى أحسنه وأينعه .

إن من بساطة التفكير أن تميز فى توقعاتك بين حاكم متهتك ملحد وشهوانى يدارى ، وبين مرتكز على شرق أو مستأنس بحماية غرب ، وبين أسرة حزبية أو أسرة ملكية ، أو بين يسار

ويمين ، فإن الظلم من شيم الجميع ، ولا يمتنعون عن امتحان المؤمنين إذا خافوا على مصالحهم أو آتاهم الأيعاز وصدرت لهم الأوامر ، المملوك منهم والمكاتب ، والمتحرر وماذا تنتظر لك بعدما رأيت أقوى الاستخبارات العالمية تقتل ملكاً تعاون مع دولتها دهراً لما بدت منه بوادر توبة وصحوة ؟

هناك خط حدود مرسوم ، يسمحون لك بما هو دونه ، من وعظ وإرشاد وعموميات ، فإن خصصت ، وضبطت البوصلة ، وتجاوزت الخط : حركوا الصنائع لإيقافك ، وقد لا يكون بعضهم راغباً بحمل وزر أذاك ، لكنه مهدد بالخلع هو نفسه إن لم يؤذك .

نعم ، نحن لا نرهبهم ، ولا نقعد عن العمل ، ولا نضخم مقدرتهم ، فإنهم بشر مثلنا ، تعتريهم الغفلة ، ويستبد بهم اليأس، وتخالف الدنيويات بين قلوبهم ، ولكن من العبث أن تتقدم حاسر الرأس مكشوف الجنب ، وإنما عليك أن تغلب كيدهم وأجهزتهم بإتقان الالتفاف من المسارب الخلفية .

❑ المبالغة في السرية تجفف القلوب الندية

إلا أن هذا الوعي لضرورة هذا المنحنى اليقظ ينحرف به الغلو عن مقصده وسمته فقد يتصور البعض طبيعة من السرية الصارمة وفردية الاتصال وتباعد وقت اللقاء ، وذلك ممكن لكنه في الأحزاب لا عندنا ، لأن شخصية الداعية المسلم ليست كغيرها ، وتلزمها رقة وشفافية ، وتقوى واعتدال مزاج ، ولطف حس ودماثة خلق وعمق فقه ، والتفرد يضعف هذه الخصال في الداعية ،

ويجعله جافاً ، كثيف الروح ، ولقد أرهقتنا تجربة الجهاز السرى بمصر فى أعقاب مقتل الأمام البنا رحمه الله ، وتحولت بعض عناصره إلى شبه عصابات اختلفت فارتكبت القتل ، وسالت دماء مسلمة بريئة ، وما كان ذلك إلا من جراء المبالغة فى السرية ووضع السلاح فى أيدى الضعاف قبل حصول التربية العميقة ، فقست القلوب ، وطفح الغرور .

إنه درس ينطق ، يعلمك ، وجوب الاحتياط المضاعف وترسيخ التربية الإيمانية وإطالة الفترة التجريبية .

لسنا ألوية إيطالية حمراء ، ولا رجال عصابات ، ويجب أن لا يطغى الضرر على المصالح التى نجنيها ، فضلاً عن صعوبة هذه الصرامة ، إذا يحول دونها إرتياد المساجد ، وحجاب نسائنا ، وأدبنا الفريد ، وعفافنا المميز ، وفى هذا ما يجعل التجميع الواسع ضرورة فوق كونه تيار ضغط ومجال انتقاء ، لتضيع القلة المصطفاة فى الكثرة المنشرة ، دون أن يعرفها المراقب والفضولى .

وثمن ذلك : فطم لسان الدعاة عن كلام كثير يستسهلون تداوله اليوم أثناء التعارف والاستطراد فى المجالس ، ومن خلال تحقيقات الصحف الإسلامية ، فهم يذكرون أسماء وأخباراً لا ضرورة لذكرها ، وينبشون تاريخاً ، ويفضحون أسراراً ، وما لم تتبدل هذه الطبائع ، ونجيد التمييز لحدود الأحاديث المتبادلة والمقالات الصحفية فإن صفنا معرّض كله للانكشاف والمخاطر .

كفى ، كفى أيها الأخوة .

كأننا نتقدم نحو ساحة الصراع ببراءة الطفولة وسذاجة الدراويش ، والمفروض أن يكون الذى جرى لنا كافياً للموعظة والذكرى ، ولتكوين الوعى والفطنة ، وكل ما يقال عن اختلاف الظروف ووجود المجالات الحرة فى بعض البلاد إنما هو كلام نظرى لا تنهض له شواهد واقعية ، وكل ما فى الأمر أن التضييق على الدعاة لم يحن أوانه بعد فى تلك البلاد ، لضعفهم وعدم توليدهم لخطر حقيقى على أعداء الإسلام ، وسيُضربون ضربة موجعة متى اقترب خطرهم ، وأقل ما يجب على الدعاة إذا استبعدوا هذه التخوفات : أن يجعلوا طبيعة التكتم أو الإعلان أمراً نسبياً ، لا يسارع معه من يفضل الإعلان منهم إلى إعابة مسلك المتكتمين ، فإن لكل بلد ظروفه التى يقررها أهله .

وأما ما يقال عن المصالح التى تكمن فى علنية القيادة وانتصاب أركانها قدوات للدعاة وزعماء للجمهور فكلام صحيح لا شك فيه ، ولكن الإبقاء عليهم أحراراً يفيدون الدعوة بعلومهم ووعيهم وتجاربهم بعيداً عن أيدى الطغاة ورصاص جماعات الاغتيال الحزبية يضمن مصالح أكبر وأكثر ، ومن الممكن أن يقوم بدور الزعامة الجماهيرية دعاة من غير أعضاء القيادات .

(القاعدة الرابعة) : اعتقاد نسبية الإلزام والإعلام فى الشورى :

وإنما هى الشورى ذات السمت الحسن الوسط نعنيها ، البريئة من قيل وقال وإحراج الرجال ، البعيدة عن المراء والرياء ، فكما أن نفس الداعية تتمنى أن لا يصدمها احتكار الآراء ، فإن نفس القائد

ترغب أن لا يكون هناك إسراف فى تدخل المستشار تصير به الجماعة جماعة قول أكثر مما هى جماعة عمل ، وكلا الرغبتين حق ، والتعادل بينهما واجب ، وقد يكون لعنصرى الحزم والسرعة فى اتخاذ القرارات مثل أهمية الآراء الصائبة الكامنة فيها .

وليس يضيرنا ما نجده من اختلاف الفقهاء والباحثين تجاه حكم الشورى ، فإن بعضهم لم يصرح بوجوبها ، ولم يتجاوز ابن القيم اعتبارها من المستحبات ، ففى معرض كلامه عن بعض ما فى قصة الحديبية من الفوائد الفقهية قال : (ومنها استحباب مشورة الإمام رعيته وجيشه ، استخراجاً لوجه الرأى ، واستطابة لنفوسهم ، وأمناً لعتبهم ، وتعرضاً لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض، وامتثالاً لأمر الرب فى قوله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[آل عمران : 159] [1] . ولغيره من الفقهاء ، منحى مقارب له ، وفى كلام بعض دعاة هذا العصر أيضاً .

إلا أن جمهرة أخرى مقابلة تصرح بالوجوب ، وأقوالها مشهورة ، ترى وجوب المشاورة ، ثم وجوب نزول الإمام أو القائد عند قول الأكثرية ، أنها ملزمة ليست معلمة فقط .

ومال الأستاذ عبد الكريم زيدان فى (أصول الدعوة) إلى القول بعدم إلزامها للقائد الحركى ، وفى (الفرد والدولة فى الشريعة الإسلامية) إلى إلزامها للإمام الحاكم ، فى شبه تعارض ، ولكنه أراد أن عمل الدعوات تغلب عليه الظروف الصعبة ، ويتطلب

---

(1) زاد المعاد 2/ 127 .

سيرة منضبطة وحزماً زائداً قد يثلمه الإلزام ويكون معه الارتخاء ، بينما يكون للدول سعة وهيمنة وهيبة وظروف حسنة تساعد على الإلزام وتجعله أحوط .

وعلى كل فإن لكل فقيه حقاً فى الميل إلى أحد الرأيين حسبما يظهر له من معانى الأدلة ، ولسنا نميل إلى القول باطّراد الإلزام فى الشورى ، ولا بإطراد عدم الإلزام ، وإنما نرى أن المؤمنين عند شروطهم ، ولكل حركة أن تدرس فى كل مرحلة أى حاجتيها أكبر : حاجتها إلى الرأى ، أم حاجتها إلى الحزم ؟ فتتخذ ما يناسب مصلحتها ، وتودع قرارها مادة فى النظام الداخلى واضحة تكون البيعة وفقها ، وللقائد أن يشترط لنفسه شروطاً إن كان يرى عدم تجاوز مجرد الإعلام ، فى غير ما هوى ، واعظاً نفسه بمعانى التقوى .

لا بد من وضوح إحدى الطريقتين فى النظام ، ولا تجوز التعمية ، فإنها تسبب الفتن . ونحن نميل إلى جعل حكم الشورى نسبياً يصح فيه الإلزام والإعلام ، بحسب البلد الذى تطبق فيه ، ومعادن الرجال ، والمرحلة ، واليسر أو العسر ، والمحبة أو الشقاق .

ودليلنا على ذلك كامن فى قصة بيعة الخليفة الراشد الثالث رضي الله عنه ، وهو دليل غفل عنه جميع من كتب فى مسائل الشورى مع أنه من أوضح الأدلة على فهم السلف للمعنى النسبى الذى نذهب إليه ، ففى صحيح البخارى أن عبد الرحمن بن عوف لما صار حكماً بين بقية الستة الذين جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم فيهم

أمر الخلافة ثم استقر رأيه على مبايعة عثمان بن عفان رضي الله عنه قال لعثمان :

(أبايعك على سنة الله ورسوله ﷺ والخليفتين من بعده . فبايعه عبد الرحمن ، وبايعه الناس : المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون)[1] .

قال الحافظ ابن حجر : (وأخرج الذهلى فى الزهريات وابن عساكر فى ترجمة عثمان من طريقه ، ثم من رواية عمران بن عبد العزيز ، عن محمد بن عبد العزيز بن عمر الزهرى ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة ، عن أبيه قال : كنت أعلم الناس بأمر الشورى ، لأنى كنت رسول عبد الرحمن بن عوف ، فذكر القصة ، وفى آخرها : فقال : هل أنت يا على مبايعى إن وليتك هذا الأمر على سنة الله وسنة رسوله وسنة الماضين قبل ؟ قال : لا ، ولكن على طاقتى ، فأعادها ثلاثا ، فقال عثمان : أنا يا أبا محمد أبايعك على ذلك ، قالها ثلاثا ، فقام عبد الرحمن ، واعتم ، ولبس السيف فدخل المسجد ثم رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم أشار إلى عثمان فبايعه)[2] .

ثم قال ابن حجر : (واستدل بهذه القصة الأخيرة على جواز تقليد المجتهد . وإن عثمان وعبد الرحمن كانا يريان ذلك بخلاف على ، وأجاب من منعه ، وهم الجمهور ، بأن المراد بالسيرة ما

---

(1) صحيح البخاري / 9 / 98 طبعة محمد علي صبيح .

(2) فتح الباري 16 / 323 ، طبعة البابي الحلبي .

يتعلق بالعدل ونحوه ، لا التقليد فى الأحكام الشرعية ، وإذا فرّعنا على جواز تجزىء الاجتهاد احتمل أن يراد بالاقتداء بهما فيما لم يظهر للتابع فيه الاجتهاد فيعمل بقولهما للضرورة) .

وتفسير الجمهور لهذا الشرط يقلل من إمكانية الاستشهاد بهذه القصة ، لكنه لا يعدمها ، فإن مراد عبد الرحمن لو كان محصوراً فى تحرى على مثل عدل أبى بكر وعمر لما نفاه علىّ ولما رفضه ، وكون العذر ينتهض لعلىّ إن لم يستطيع ذلك وقصر عنه يعتبر ميزاناً بديهياً من موازين الإسلام لا يغفل هو وعبد الرحمن عنه ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ، وكان النبى ﷺ يستدرك إذا أخذ بيعة فيقول : فيما استطعت ، ولذلك فإن الأظهر من مراده هو تقييد الخليفة الجديد باجتهادات أبى بكر وعمر ، وكأن نفى الجمهور لهذا المراد إنما جاء فى غمرة حماستهم لنفى التقليد المذهبى ، والقلب يشهد بمعنى فى القصة مما نذهب إليه وإن صادمه قول الجمهور .

فإذا كان الميل إلى هذا المعنى فإن الاشتراط على الأمير يكون صحيحاً ، ومعنى ذلك إن بإمكان الأتباع أن يتوسعوا فى مدى هذا الاشتراط وتنويعه ليشمل إلزامه برأى الأكثرين من الأعوان المساعدين له .

هكذا ، شرط رفضه علىّ ، وقبله عثمان ، وفى الرفض والقبول دليل على أن القائد قد يشترط توسيع صلاحيته أو يتنازل

عن بعض حريته وحقه ، وإذا مال الأتباع إلى تضييق مجال القائد ولم يمل معهم القائد إلى الذى مالوا إليه فإن طريقه إلى رفع الحرج عن نفسه يكون بما كان من على رضى الله عنه ، فيرفض تسلم القيادة وتحمل التبعة ، وذلك سائغ فى الأحوال التى فيها سعة ، ولا إثم عليه إن شاء الله ، لكونه متأولاً ، إلا إذا كان الحال لا يصلح إلا بوجوده ، ويترجح حصول الفتن أو الوهن باعتزاله . فإن بعض الإثم قد يلحقه والله أعلم ، ومعانى المروءة تخاطبه بالتنازل عن بعض شروطه ، أو تخاطب الأتباع ، تندب لهم الحرص على تولية هذا القائد بالتنازل عن بعض شروطهم وتوسيع حريته ، وإذا تحرى الطرفان مصلحة الدعوة لم يعسر عليهما الاتفاق الوسط .

إن الأمر أمرنا ، وقد ترك الشرع للقائد وللأتباع حرية فى الاشتراط ، إذ إن الأصل فى الأمور الإباحة ، وليس هناك نص يمنع ، والاستشهاد بهذه القصة مهم ، فوق أن الركون إلى مذهب فى الشورى ليس باباً من العقيدة والتعبد ، وإنما هو باب تقرره مقادير وأنواع المصالح التى يوفرها كل مذهب ، ويكون تطبيقه على ضوء قاعدة سد الذرائع .

بيد أن اعتقادنا نسبية الشورى لا يمنعنا من التصريح بأن التجارب الوافرة التى مرت بها الحركات الإسلامية الحديثة ترجح جانب وجوب الاستشارة ، وأولويتها ، وتدعو إلى أن نشارك الأديب الثقة أبا حيان التوحيدى فى اعتقاده أن :

(المستعين أحزم من المستبد ، ومن تفرد لم يكمل ، ومن شاور لم ينقص)[1] .

هذه هى المسألة الرئيسة ، فإن من تفرد لم يكمل ، وسبحان الله الذى خلق كل بشر عن الكمال ناقصاً كما أن من شاور لم ينقص ، فإن قوة الرأى والحجة إذا توفرت عند القائد : فرضت نفسها .

ولهذا كان أبو بكر رضي الله عنه يمنع التفرد ويقول :

(الزموا المساجد ، واستشيروا القرآن ، والزموا الجماعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر)[2] .

ثم من بعد ذلك نرى إلزامها .

وإذا كان هناك تخوّف من الخطأ إذا كانت آراء أكثرية المستشارين ملزمة للقائد ، لجودة وعيه ونقص تجربتهم ، فإن الاحتياط المناسب لا يكون بالحجر عليهم ، وإنما بأن نشترط للأمور المهمة موافقة أكثرية الثلثين أو أكثر أو أقل وليس مجرد موافقة الأكثرية المطلقة التى هى النصف زائداً الواحد .

(القاعدة الخامسة) : توازن الممارسة السياسية والتربية الإيمانية .

---

(1) الإمتاع والمؤانسة 1 / 65 .

(1) عيون الأخبار 2 / 233 وكأنه قال : واستثيروا القرآن ، فحرفت .

فإن طريقنا ليس مثل طرق الآخرين ، والأحزاب العلمانية إنما تعتمد الخداع أو الإرهاب والبطش فى توسيع نفوذها ، أو هى تغريهم بالمصالح والمنافع المادية ، ولكن ليس لنا نحن إلا علوم الشريعة نتحدث بها ونحلل الواقع والمستجدات وفق موازينها ، وإلا هذا الإيمان الذى يكون فى القلب ، فيفيض على الوجه والجوارح ، فيقلده الناس إذا شاهدوا آثاره ، ويكون هو مدخلنا لإقناعهم بأفكارنا وانضمامهم إلى حركتنا .

إن هذا الطريق الإيمانى هو الضامن لعدم الانحراف ، وبدون التربية عليه تنتج نفوس تفقه السياسة ، لكنها صلبة لا تعرف الرقة ، وقلوب ربما تجيد الفوارت والثورات ، لكنها قاسية ، وربما نشأ التضارب بينها .

وبعض إخواننا الذين يدْعون إلى تجاوز التمهيد التربوى يستشهدون بالثورة الإيرانية ، كيف أنها كانت ممارسة سياسية جمعت الجماهير واستوعبت ونجحت .

وما نظن استشادهم فى محله ، فإنهم رأوا الخمينى ثائراً ولم يروه مربياً وممهداً ، إذ كان له عمل قديم لسنوات طويلة يوم لم يكن أحد يعرفه ، واستثمر المشاعر التى تركها نواب صفوى رحمه الله وأصحابه من جماعة فدائيان إسلام ، وكتابات على شريعتى فى الفكر والتربية ، فوق استناده أساساً على قوة مركز العلماء فى الجمهور الشيعى ، وعلى شعور الترابط الذى يسودهم كطائفة .

لقد عرفوا الخمينى بتعريف وكالات الأنباء والصحف له لما بدأ معارضته ، وغفلوا عن تاريخه السابق ، فظنوا أن تجاوز المراحل فى العمل مستساغ ، وأصبحوا يريدون القفز من على الأسوار التى يقرها العقل السليم لكل مرحلة من مراحل العمل .

كلا ، فإن الخمينى لم يكن مُتَسَوِّراً ، ولا قفز قفزاً ، بل تأنى ومهد وربّى ، وعلى إخواننا أن يفعلوا الذى فعل .

إن البعض يحاول نقد مسيرة الدعوة كلما رأى فوز الآخرين ، ومنهم من يعزو طول الطريق إلى الجهود التى تستهلكها التربية الإيمانية ، فيدعو إلى اطّراحها وتجريد العمل فى السياسة ، ولكننا نرى أن العمل التربوى هو الأساس الذى تستند عليه جولاتنا السياسية ، ونظنه خطاً أصيلاً يميز العمل الجدى الدائم عن العمل الإرتجالى السريع .

❑ من جانب المحراب يبدأ سيرنا

وللحركة فى السودان ترجيح للمنهج السياسى منذ اكتشافها التأثير الإيجابى للممارسة السياسية فى البناء الإيمانى ، وهو منهج صائب فى كثير مما يدّعيه ، مستقيم الزوايا ، ولكن بعض الدعاة منهم ، يوم ابتدأت التجربة فى أوائل السبعينات ، فى جو مساعد مفتوح بوجود حكومة ضعيفة وانفصام فكرى واضح مع الحزب الشيوعى المعادى يمكّن جمهور العامة من الناس من فهم تبريرات الصراع بسهولة ، ويحدو بهم سراعاً إلى الوقوف فى الصف

الإسلامى ، يومها ، أخذت إخواننا أولئك نشوة سببّتها لذة البداية فى صراع ناجح ، فكانت لهم مبالغة ومغالاة متنكرة لأساليب التربية الفردية والاعتكافات اليومية العلمية والعبادية ، وفلتت ألسنتهم بألفاظ مستعجلة أجلفت غيرهم من أهل التأنى الذين يعانون من ظروف أصعب من ظروف السودان .

إن هذا المذهب السياسى المجرد الناقد لجهد التربية ما زال يتنامى فى السودان ، والذى نراه أنهم إنما يعممون القول دونما نظرة نسبية ، ونظنهم لا يجيدون التعبير فى وصف حالة خاصة تمكنهم من إقلال الجهد التربوى ، وذلك أن تديّن الشعب السودانى يغنيهم إذ وفّرت البيئة الأنصارية أو الختمية كثيراً من الجهود التى يفترض أن تؤديها الجماعات الإسلامية العاملة فى البلاد الإسلامية الأخرى وما زال الشباب السودانى العادى وافر الإيمان ، نقى الفطرة ، طاهر السلوك وتكثر فيهم المحافظة على الصلاة ، ولا يحتاج كى يتحول إلى داعية إلا إلى وعى سياسى وارتباط تنظيمى ، بينما تجد شعوباً أخرى كثر فيها النفاق ، ويبدأ الدعاة فيها تعليم أصحابهم الجدد مبادئ الصلاة وأوليات الأخلاق .

ومع ذلك فإن تزايد تعقّد الحياة يضطر دعاة السودان إلى زيادة مقابلة فى رعاية الجانب التربوى اضطراراً ، فإن المؤشرات التى تأتى بها المسيرة العملية الفعلية قد تنقض القناعة النظرية التأملية والظنون المستعجلة ، وآية ذلك ما نشره الأستاذ الترابى عن (الصلاة) و (الإيمان) ، إذ نجد فى هذين الكتابين مساهمة تربوية

لطيفة ، وتذكرة قلبية رقيقة ، وفيهما دليل على استحالة نفى الأقتران الذى ندّعية بين التربية والعمل السياسى .

(القاعدة السادسة) : التدرج فى الإصلاح .

ذلك أن النفوس تألف الإعوجاج إذا عاشت فيه دهراً طويلاً ، وتتصلب على ما تألف من المعاصى ، وإذا أردنا لها نقلة مفاجئة سريعة : حاصت وتمردت ، وتفلتت ، تبغى التملص ، فنضطر إلى الترفق ، وتجزىء الخير فى ورود متتابع متصل ، حتى يكتمل .

والأساس الفقهى الذى تستند عليه قاعدة التدرج يكمن فى قاعدة ترجيح المصلحة الكبيرة على الصغيرة عند تعارضهما ، فإن، امتناع الناس عن قبول الخير دفعة واحدة قد يؤدى بهم إلى شقاق لنا يتطور إلى فتنة عارمة ، وهى مفسدة كبيرة ، نبعدها ـ وننأى عنها باحتمال مفسدة تأخير إعلان وتطبيق الحق الذى يرفضونه .

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

« إنما نزل أول ما نزل منه ـ أى القرآن ـ سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام : نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء : لا تشربوا الخمر . لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا . لقالوا : لا ندع الزنا أبداً » .

ولسنا نريد بذلك التملص من بعض الشرع ، فإن الشرع كامل ، وكله واجب ، ولكننا فى تطبيقه على الناس أول أيام

حكمنا ، أو فى دعوتنا الناس له قبل أن نحكم ، أو فى تربية الدعاة عليه : يسوغ لنا أن لا نتحدث به أو نطبقه دفعة واحدة ، بل فى خطوات .

ودليلنا على صواب هذا السلوك ما كان من الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فإنه خليفة فقيه ، وكان قد جاء إلى الحكم بعد مظالم ارتكبها بعض الذين سبقوه ، فتدرج ، ولم يستعجل ، فدخل عليه ولده عبد الملك فقال له :

(يا أبت : ما يمنعك أن تمضى لما تريده من العدل ؟ فوالله ما كنتُ أبالى لوْ غَلَت بى وبك القدور فى ذلك .

قال : يابنى : إنى إنما أروّض الناس رياضة الصعب . إنى أريد أن أحيى الأمر من العدل فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعاً من طمع الدنيا ، فينفروا من هذه ، ويسكنوا لهذا) (1) .

أى يخرج طمعهم بالموعظة والتأنى ، ليكون عن قناعة ، لا بخوف من السطوة والعقاب .

ويبدو أن هذا الولد الصالح قد حاز حماسة فاقت التى عند أبيه ، فدعته إلى معاودة الاستغراب من سياسة التأخير والتدرج ، فكان منه أن :

(دخل على أبيه ، فقال : يا أمير المؤنين : ما أنت قائل لربك غداً ، إذا سألك فقال : رأيتَ بدعةً فلم تُمتها ، أو سنةً فلم تُحيها ؟

(1) كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلاّل / 99 ، والصعب هو فحل الجمل العنيد .

فقال أبوه : رحمك الله وجزاك من ولد خيراً .

يابنى : إن قومك قد شدوا هذا الأمر عُقدة عقدة ، وعروة عروة ، ومتى أردتُ مكابرتهم على انتزاع ما فى أيديهم : لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقاً يكثر فيه الدماء . والله لزوال الدنيا أهونُ عليّ من أن يراق فى سببى محجمة من دم . أو ما ترضى أن لا يأتى على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميتُ فيه بدعةً ويحيى فيه سُنّة ؟) (1) .

هكذا . . . إذ المهم أن تكون هناك نية جازمة ، وسير وإحلال للخير والسنن ، وأما مقدار ذلك فتحدده الظروف وردة الفعل المعاكسة ، ولا بد من تكيف للمحيط ، ولا بد من مرونة تمتص الصدمات المحتملة .

❑ ضرورة التمهيد التربوى وإثارة الأشواق

وتحتاج المواقف العملية والتطبيقات السياسية إلى أسلوب فى التربية خاص ، يمهد ، ويؤسس مقدمات ، يكون ظهور وتنفيذ الأمور العظام والمنعطفات المهمة معها متوقعاً دونما استغراب من الناس ، أو أن نحرك فى نفوس الناس أشياء ومفاهيم وموازين من شأنها أن تتركهم فى استفهام متواصل بحيث يجيء الأمر العظيم بعد ذلك جواباً لاستفهامهم ، ويقبلونه بما عندهم من أهلية القياس وفق الموازين التى مهدنا بها للأمر .

وهذا الأسلوب هو فرع للتدرج فى الإصلاح ، وأوضح مثل

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي / 240 .

له ما كان من الممهدات التى أوردها الله عز وجل بين يدى تحويل القبلة من بيت المقدس نحو المسجد الحرام .

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله :

(لما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً : وطأ سبحانه قبلها :)

أ ـ أمن النَسْخ وقدرته عليه وإنه يأتى بخير من المنسوخ أو مثله .

ب ـ ثـم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنّتَ رسول الله ﷺ ولم ينقد له .

ج ـ ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شىء ، وحذّر عباده من موافقتهم وإتباع أهوائهم .

د ـ ثم ذكر كفرهم وشركهم به وقولهم : إن له ولد ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً .

هـ ـ ثم أخبر أن له المشرق والمغرب وأينما يولى عباده وجوههم فثم وجه الله ، وهو الواسع العليم ، فلعظمته ووسعته وإحاطته : أينما يولى العبد فثم وجه الله .

و ـ ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله ﷺ عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه .

ز ـ ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم ، وأنه إن فعل وقد أعاذه الله من ذلك فما له من ولى ولا نصير .

ح - ثم ذكّر أهل الكتاب بنعمته عليهم وخوفّهم من بأسه يوم القيامة .

ط - ثم ذكر خليله بانى بيته الحرام ، وأثنى عليه ومدحه ، وأخبر أنه جعله للناس إماماً يأتم به أهل الأرض .

ى - ثم ذكر بيته الحرام وبناء خليله له ، وفى ضمن هذا أن بأنى البيت كما هو أمام للناس فكذا البيت الذى بناه إمام لهم .

ك - ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس .

ل - ثم أمر عباده أن يأتموا به ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبراهيم وإلى سائر النبيين .

ن - ثم رد على من قال إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هوداً أو نصارى .

وجعل هذا كله توطئة ومقدمة بين يدى تحويل القبلة ، ومع هذا كله فكبر ذلك على الناس إلا من هدى الله منهم ، وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة بعد ثالثة ، وأمر به حيثما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حيث خرج) [1] .

(القاعدة السابعة) : إرجاء الإكثار من الواجهات

والواجهات الإسلامية هى جمعيات علنية مجازة من قبل الحكومة ذات أهداف محدودة تمثل أجزاء من الهدف الإسلامى

(1) زاد المعاد 2 / 57 .

الكبير ، أو تكتلات طلابية وعمالية وفلاحية غير مجازة رسمياً ذات اهتمامات فكرية وثقافية إسلامية فى نطاق محيطها المهنى .

وسبب وجود هذه الواجهات يعود إلى جفلة وتخوفات من العمل السياسى الحركى الصريح فى أسلوبه التغييرى للمنكر ، يتخوفها أناس تعوزهم الجرأة ، أو تعوزهم القناعة بجدوى وصواب هذا العمل ، أو يستثقلون تبعات البيعة والالتزامات التنظيمية الدقيقة والأوامر الحاسمة ، إلا أن فى هؤلاء غيرة دينية وحماسة وحميّة لخدمة الإسلام ترفعهم عن التسيب ، وتقربهم من الدعاة ، فيبادرون إلى الانضمام إلى هذه الواجهات إذا وجدت ، أو يمكن إقناعهم بسرعة للانضمام لها ، وبذلك تستقطب الحركةُ قوى ثانويةً عديدة وكثيفة وتوجهها للمشاركة فى تحقيق بعض أهداف الخطة العامة ، وتضمن من خلال هذه المشاركة ترعرع وتنامى شجاعة ووعى هذه العناصر ، ولربما تكون بعض العناصر ساذجة سذاجة مفرطة فترى الجماعة أن من الأصوب عدم قبولهم فى صفوفها حتى لو أرادوا ذلك ، وتختار لهم هذه الواجهات كميدان نشاط ، أو يكون المانع سبباً اجتماعياً ، أو غير ذلك .

وتستخدم الأحزاب ، والشيوعية منها خاصة ، هذا الأسلوب بنجاح ، وما حركات أنصار السلام ، واتحادات الطلاب الديمقراطية وأمثالها إلا بعض واجهاتهم ، ولا يضير الحركة الإسلامية شيئاً أن تقتبس عنهم هذه الطريقة فى النشاط والتحريك ، إلا أن عليها أن تدرك أن التوسع فى إنشاء هذه

الواجهات يضع عليها واجباً إدارياً ضخماً يؤثر تأثيراً سلبياً على إدارة تنظيم الحركة نفسه ، إذ ستضطر الحركة لإسناد قيادات الواجهات ، بدعاة أكفاء منها ، كما أن الانضمام إليها قد لا يكون واسعاً ما لم تكن هناك محركات نفسية أولية عند عموم الناس يسببها وضوح التحدى المتبادل بين التيار الإسلامى والأفكار المناهضة له ، أو الشعور العميق بوطأة ظلم سائد ، وما أشبه ، وهذا التحدى وهذا الشعور لن يكونا إلا فى المراحل المتقدمة من مسيرة الدعوة .

ولهذا وجب على الحركة أن تلتزم سياسية الخطو المتدرج فى إقامة هذه التفرعات والروافد ، انتظاراً لوضوح التحدى ، وتجنباً للإرهاق الإدارى ، ولئلا تشغل يومياتها حيّزاً كبيراً من اهتمامات قيادة الحركة يلهيها عن رعاية الأصل الداخلى الرئيسى ، ولقد تورطت بعض أجزاء الحركة من قبل باستعجال وتقليد غير مدروس للأحزاب ، فأكثرت من الواجهات ، فى وقت واحد ، وبدأت من حيث انتهى الآخرون لا من حيث بدأوا ، ولفها سهو عن رؤية الفرق بين مرحلتها الأولية وبين المرحلة الخططية المتقدمة التى كانت عليها الأحزاب الأخرى ، وأتاحت لها حرية انبثاث وانتشار لم تكن تملكها الحركة ، وأدى ذلك إلى فشل الواجهات الإسلامية ، وقلة المنتسبين لها ، وضعف التنظيم الحركى نفسه أيضاً ، وإذن ، فلا بد من التأنى الشديد فى الإذن ببناء الواجهات ما دامت الحركة فى مراحلها الأولى والوسطى ، ولا يكون

انفتاحها على هذا الأسلوب إلا فى المرحلة المتقدمة ، ومن بعد رسوخ تنظيمها وحصول سعة فى الطبقات القيادية المؤهلة . وأهم من ذلك : أن تكون بعد اكتمال هيبة الحركة ومكانتها المعنوية وبروز دورها الريادى القيادى ، لضمان تبعية الواجهات لها ، ودورانها فى فلكها ، دونما تقدم بين يديها أو تحديث نفسها بتحديات للحركة عند اختلاف الاجتهادات تؤدى إلى تعارض مواقفهما المعلنة ، كمثل شباب أقران يدرسون الفقه فى حوار متكافئ بينهم ، سرعان ما يختلفون ويكون افتراقهم ، ليسوا كآخرين يلتفون حول شيخ أفقه منهم وأكبر منهم سناً ، فيهابونه ولا يتطاولون عليه ، وإذا اختلفوا بينهم كان هو الحكم القاضى والمرجع المطاع .

(القاعدة الثامنة) : تجزئة المرحلة إلى أهداف متتالية .

وهذا يقتضى عدم التوجه المباشر للهدف الكبير ، بل إقرار منهج الغايات القصيرة المتكاملة ، ورعاية الأولويات الآنية ، وإنما نوجب هذا المنحى التدريجى كعلاج لانخفاض القدرات التنفيذية عند توزع الجهود فى ميادين كثيرة .

وتكون التجزئة بأن تحصى وتمسح القطاعات الاجتماعية والحكومية والعلمية التى يلزم الحركة الإسلامية أن تتواجد فيها ، وتختار كل سنة قطاعاً منها يتم التركيز على الانبثاث فيه أو تمتين التواجد الإسلامى فيه أو العناية به ، وربما زادت المدة على سنة ، أو ربما تم اختيار أكثر من قطاع فى وقت واحد ، مع عدم إهمال

القطاعات الأخرى ، وقد يفترض هذا التركيز المتنقل وجود ثلة احتياطية دائمية من دعاة ليس لهم ارتباط ثابت بقطاع معين من التنظيم ، تكلف كل سنة بإسناد عمل الدعاة الآخرين فى القطاع الذى أعطته الخطة الأولوية ، وتستخدمهم القيادة كاستخدام القائد الحربى للقوة الاحتياطية التى يدخرها فى الخطوط الخلفية لنجدة الأجنحة التى تتعرض لضغط شديد ، ولسد الثغرات ، والتصدى لعمليات الالتفاف ، ولربما لا يكون سحب هؤلاء الدعاة المساندون ثانية فى آن واحد ، بل على مرحلتين أو أكثر ، تجنباً لحدوث فراغ مفاجئ وهزة فى العمل المسند .

إن هذا الإسناد للقطاع المختار بالثلة الاحتياطية ليس هو إلا بعض ما يفترض ، إذ لا بد أن تظاهره اهتمامات قيادية أيضاً ، على مستوى التخطيط والمتابعة التنفيذية ، بحيث ينال ذلك القطاع الحصة الكبرى من هذه الاهتمامات ، ومن الميزانية المالية كذلك ، وتوزيع النشريات المساعدة الملائمة للجمهور فى ذلك القطاع ، والدعاية الصحفية والمقابلات والندوات ، وتفريغ الكفايات والتوعية الداخلية للدعاة حول طبيعة المجال المختار وأهمية العمل فيه وكيفيته ، وتوجيه بعض الدعاة لعمليات إحصاء وبحوث ميدانية عن ذلك المجال فى السنة التى تسبق بدء العمل المكثف فيه لتحديد طبيعة الحاجات والمشاكل والإعانة فى التخطيط ، ثم عقد مؤتمر للمسؤولين لسماع اقتراحاتهم .

فمرة نضع تكثيف تأثيرنا فى المدارس الثانوية هدفاً آنياً لنا ،

ونجعل ذلك قضية الساعة فى محيط التنظيم ، ونركز الجهود عليها ، ومرة نحول الاهتمام إلى الجامعة ، وفى ثالثة إلى المجال العمالى ، وفى رابعة إلى التوعية الإسلامية والتأليف والنشر ، أو توجيه الدراسات العليا التخصصية لمجموعة من الدعاة ، أو استقطاب العناصر السائبة ذات التأثير المضاعف ، وغير ذلك ، ولا يكون التحريك الشامل المتكافئ والتصعيد إلا بعد الفراغ من تعزيز الدعوة لمراكزها فى هذه المواقع التى تتكون من مجموعها ساحة الصراع ، ولولا هذا الاضطرار للتجزىء والرعاية للأطراف ، والتدارك الجانبى ، ورفء الفتوق والبثوق الحادثة الطارئة ، لكان الوصول سهلاً ، ولكانت الخطة علماً بدائياً لا يقتضى التفنن النسبى ، ولكان يكفى فيه أن نعلق سهماً إعلانياً موجزاً يشير إلى الهدف الكبير .

تماماً كالحرب ، فلعلك لا تحتاج دخول كلية الأركان العسكرية لتعلم أهمية رصد قوتك للمعارك الحاسمة ، لكن علمك بهذه البديهية لا يضمن لك النصر ما لم تتكيف للمحيط ، وتتوغل بتدريج ، وتوفر العوامل الفرعية التى تؤثر فى المعركة الرئيسة سلباً وإيجاباً . ومثل هذا هو الذى عناه تشرشل لما نَبَّهَ خلال خواطره عن الحرب العالمية الثانية بأننا (نسمع من الأخصائيين فى الفنون العسكرية إطراءً كثيراً على ضرورة إعطاء الأسبقية للمعارك الحاسمة ، وفى ذلك ما فيه من الحكمة غير أن هذا المبدأ فى الحرب - كغيره من المبادئ - يسيطر عليه الواقع والظروف ، ولولا ذلك لكان الحرب سهلاً للغاية ، بل وكان يصبح كتاباً مسطوراً لا فناً من

الفنون) [1] .

هكذا عمل الدعوة أيضاً ، لا يصح فيه تشتيت الجهود وتوزيعها فى ساحة عريضة ، ولا ينبغى فيه القفز المتفائل ، ولا صلابة الخطة ، مثلما لا ينبغى فيه الإحجام المتشائم وليونة المواقف بل هو خطو معتمد على توفير تكامل أنواع القوى ، وعلى تأمين الجبهات الجانبية ، وعلى المرونة إزاء الظروف المتغيرة .

ولا بد أن نعى أيضاً أن تطبيق أسلوب الأهداف المتتالية هذا لا يشترط أن يكون فى بداية مسار الدعوة فقط ، بحيث إذا أخطأت القيادة اتباعه وتجاوزته فإن الفرصة من الاستفادة منه تكون قد فاتتها ، بل هو أسلوب يمكن تكراره لمن طبقه مرة ، ويمكن الاستدراك به فى مرحلة لاحقة على جزاف مرحلة سابقة ، فأيما مجموعة عمل متقدمة وَعَتْهُ من بعد نسيان فإن بإمكانها أن تلجأ إليه وتوقف انفتاحها العام برهة إذا رأت توفر المصالح بواسطته .

(القاعدة التاسعة) : الانسحاب من المعارك الثانوية والجانبية .

فإن أنفاس بعض الدعاة قد تطول مع أقرانهم من دعاة الجماعات الإسلامى الإسلامية الأخرى ، فى مباحث فقهية خلافية ليس وراءها كبير نفع ، أو فى مواقف خططية يتعدد فيها وجه الصواب ، فيكون فى بحثهم التهاء عن قضايا الساعة الجادة ،

---

(1) الحرب العالمية 3 / 237 الطبعة الإنكليزية . نقلاً عن بعض الكتب التي اقتبست منه .

وتبدو جمهرتهم أمام المسلم الذى يطلبون تأييده ومساندته فى صورة الجمهرة المختلفة المتجادلة التى لا تستحق أن يمنحها ما تطلب من مساندة وتأييد .

لسنا نقول بانتفاء الفائدة إذا أدلينا برأى ، ولكننا نقول بأن موضوعات الخلاف مفضولة فى الظروف الحالية الصعبة ، وليست فاضلة ، مرجوحة ، وليست راجحة ، ولها مجال فى أيام السعة ، والداعية الذى يشترط أن نبدى آراءنا الاستدراكية على كل قول مخالف لأقوالنا من أقوال الجماعات الإسلامية الأخرى إنما هو داعية يمكن الاستغناء عنه ، وشرطه دليل على أن محنة المسلمين الحاضرة لم تلذع قلبه لتخرج منه بقية البَطَر .

ويجب أن نفهم أن أهم واجب على العمل الإسلامى اليوم إنما يكمن فى توعية المسلمين وترويض النفوس وتأديبها ، وتزويدها بالتقوى الكافية لأن تريها ضرورة وحدة الصف ، ونبذ الفتن ، والتفرق والخلاف ، إذ لم تؤخذ الدعوة الإسلامية إلا من هذه الثغرة ، ولم يقتحم العدو إلا عبرها .

فالمتوقع أن الحكومات التى تضيق ذرعاً بالتيارات الإسلامية النامية المتصاعدة فى بلاد كثيرة لن تلجأ إلى سرعة الضرب والإرهاب ، بل تصبر ، حتى تكتشف بعض من ينتسب إلى طريق الدعوة ولديه مراء ، وجرأة على الفتوى ، واستعجال فى البحث الفقهى ، من أى جماعة إسلامية كانوا ، فتدس من يشجعهم على ترويج آراء غريبة وإثارة قضايا لا ينبنى عليها عمل ولا تعالج واقعاً

قائماً ، وتعطى فى الوقت نفسه المجال الواسع لبقية الدعاة للرد على ذلك ، فتندلع معركة فكرية فقهية حامية الوطيس بين الجماعات الإسلامية ، يحتار لها القلب المسلم السائب ، فيزهد فى الجميع ، ويؤخر قدماً كان قد مدها لتقدم وسير ، فتخلوا الساحة من نصير ، وينعزل دعاة الإسلام عن رجال المساجد وشباب الجامعات وحملة الفكر وأعيان الناس ، فتبدأ الحكومات أنذاك تحرشها وكبتها ، فى حملة إعلامية تجسم أخطاء المسلمين أنفسهم ، مسنودة بمظلة من أعمال حكومية ذات صفة إسلامية عامة تعطيها صورة حسنة لدى الساذج ، من بناء المساجد المزخرفة، وطبع المصاحف الملونة وعقد المؤتمرات الإسلامية ، وجلب الوعاظ ، وإنشاء المؤسسات الخيرية ، تنطق لسانه بثناء وحمد لها ، وتحجب بصره عن محنة تكوى أهل الحق المختلفين ، وما مسكنه عنهم ببعيد .

إن الآراء الفقهية الخلافية ، أو تفاصيل الأنظمة الإسلامية ، إذا لم تظهر اليوم ضرورة لبحثها ، وكان الدعاة فى سعة أن يسيروا بدون اتخاذ موقف جازم عاجل إزاءها ، فإنه يكون من الأفضل تجاوزها إذا أدّت إلى استعار الردود بين المختلفين ، سداً للذريعة ، وكبتاً لاحتمالات التعصب ، وحصراً لنطاق تبادل الاتهام ، وتجاوزاً لاحتمالات المحن التى تأتى بسببها أو مستغلة لها .

(القاعدة العاشرة) : الخطو بلا قفز ، والبعد عن التهور .

فإن الحسم مقيد بشرطين مهمين : كفاية القوة ، عدداً ونوعاً

بمقدار ترجح الفراسة معه ظن النجاح . وملاءمة الظروف ، بحصول وعى لدى قطاعات واسعة من الناس وقناعة بضرورة التغيير ، وارتباك المستبد أو غفلته ، وتنامى الإحساس بوطأة الظلم أو الكبت السياسى أو الفوضى الاقتصادية أو التناقض الفكرى . وكل تصعيد يتجاهل أحد هذين الشرطين لا يعدو أن يكون فورة عاطفية لا تقوى على الصمود ، وفى كثير من الأحيان يكون من الواجب أن نُدخل فى هذا الحساب احتمال نجدة الخصم من قبل دولة أخرى .

ويكاد المحلل للتاريخ القريب أن يلمح بروز فرص دورية فى كل بلد تتكرر فى كل نحو عشر سنوات مرة ، تقل أو تزيد ، يتكون معها فراغ قابل للامتلاء بمبادرة مبادر منتبه حاضر البديهة سريع الجزم بقراره فى غير ما تردد .

لكن هذه المبادرة لن تكون من ضعيف ، وإنما من متقن أكمل استعداده ويتحين المجال . وحصول الوعى أو تنامى الإحساس لن يكونا ظاهرة تلقائية ينزوى الدعاة فى انتظار بركاتها ، بل هما نتاج عمل يومى كثيف طويل يقوم به الدعاة بين الناس ، كتابة وتكلماً ، من خلال انتشار واسع .

ولقد كانت روح التقليد تدفع بعض الدعاة فى أعقاب كل استغلال ناجح لمثل هذه الفرص من قبل الأحزاب الأرضية إلى تفكير بمحاكاة ساذجة يسرعون استنفار أنفسهم لها ، فتصدمهم متطلبات الواقع واستماتة المسيطر الجديد الذى لا يزال فى عنفوان

فورته ولم تلهه المشاكل بعد ، فيفتتنون ، ويخلعون الطاعة ، ويصبّون جام غضبهم على قيادات يتهمونها بالعجز ، يوجدون ذلك تنفيساً لحماستهم المتأججة ، وامتصاصاً لردة الفعل التى تهزهم عند رؤية انتصار الغير .

وليس من واجب هذا الرسم الذى نرسمه لخارطة المسار أن يبين ما إذا كانت القيادات قد تلبست بتقصير بالأمس ، أم أنها فعلت الذى بوسعها ، ولا أن يتهم أو يحكم بالبراءة ، لكن من واجبه أن يعلّم المندفعين خطأ مثل هذا الاستدراك الانفعالى المفرّق الموهن للقوى . وقد لا تكتسب صيغ عمل هؤلاء الأخوة شكل فتنة ، وتظل ألسنتهم عفيفة ، لكنهم يصبحون قادة أنفسهم ، ويأخذون بالتشويق إلى الجنة ، وترداد آيات الجهاد ، فيلتف حولهم شباب متحمس لا يعترف بغير الاقتحام مذهباً ، فيكون ثم تورّط بمناوشات يستغلها الخصم لضربهم ، ولا يصلون إلى نتيجة، ولو أنهم صبروا لكان خيراً لهم ، والأمثلة والشواهد كثيرة، وفى بلاد متعددة .

وفى أعقاب نجاح الثورة الإيرانية على الشاه بدأت تظهر عند البعض نشوة مفرطة التفاؤل ، تقيس مع الفارق ، وترى الصعب سهلاً ، معتمدة على أخبار يوميات الثورة من خلال الصحافة ، دونما رؤية تحليلية ، أو علم بمراحل التحضير الطويلة لها ، أو إحاطة بطبيعة الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى

مّرت بها إيران وكونت فرصة مثلى سارعت قيادة الثورة الإيرانية إلى تصعيدها واستغلالها .

وما من شك فى أن بعض البلاد العربية والإسلامية تمر بظروف قريبة الشبه بالظروف التى أحاطت إيران قبيل الثورة ، وتنبعث منها إرهاصات تدع المراقب يتوقع حدوث انعطافات حادة فيها ، وأن من الواجب وضع دراسة تفصيلية عن تجربة الثورة الإيرانية والمسارعة إلى الانتباه والانتفاع من إيجابياتها وأساليبها الفعالة ، ولكن أقطاراً أخرى بالمقابل ، وهى الأكثر ، يختلف واقعها اختلافاً كلياً ، ومن الخطورة أن تتكلف الحركة الإسلامية فى هذه الأقطار تصعيد المجابهة تكلفاً ، وبافتعال يأبى التركيب الاجتماعى والسياسى فيها الاستجابة له ، وإنما عليها الانتظار ، واتباع أساليب أخرى تبتكرها ، أو الاقتباس من رصيد التجربة العالمية الواسعة التى يحكيها التاريخ السياسى الحديث .

ولربما نسمع نغمة لدى بعض إخواننا عند مثل هذه المباحث ، تصف الشيوعيين بجرأة يفتقدها العمل الإسلامى ، ويتوهمون أن الأحزاب الشيوعية تقذف بنفسها فى المعامع دائماً ، وتختصر الطريق بالقفز المباشر إلى نهايته . ولكن التأمل الهادئ ينفى هذا الادعاء ، والشيوعيون يجنحون إلى الخطأ فى التخطيط وإلى الاندفاع المستعجل أحياناً كما يجنح غيرهم ، وفى الضربات التى تلقاها أكثر من حزب شيوعى عربى شواهد على ذلك ، وكان للحزب الشيوعى العراقى تواجد قديم فى الساحة السياسية ونفوذ

في أوساط الشباب جعله أقوى الأحزاب لسنوات طويلة ، إلا أنه استعجل بعض الاستعجال في أعقاب ثورة 1958 ، وباشر التصفيات الدموية ضد أعدائه ، فسقط ، وكرهه الناس ، وأصبح حزباً ثانوياً ، ودفع الثمن غالياً . وكذلك الحزب الشيوعي السوداني ، كان قوياً ، فورطه هاشم العطا سنة 1971 ، ورفع الرايات الحمراء فجأة ، فدفع ثمناً باهظاً أيضاً ، وأطيح برؤوسه .

ولينين نفسه ، ذاك الجريء الناجح في ثورته ، كان شديد الإنكار على هذا التجاوز القافز المتجاهل لضرورة نضوج الظروف المساعدة ، وقد روى عنه بيلاكون ، أحد مؤسسي الحزب الشيوعي المجري ، وعضو لجنة الأممية الشيوعية ، نقداً للحزب الشيوعي الألماني يفصح عن مفهومه الذي يؤكد وجوب البعد عن التهور .

يقول بيلاكون : (أثناء المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية ، وفي يوم من أوائل تموز (يوليو) عام ١٩٢١ ، وبعد الخطاب الكبير الذي ألقاه لينين في المؤتمر في ١ تموز تحدث لينين مع أحد زعماء انتفاضة آذار (مارس) في ألمانيا الوسطى وواضعي (نظرية الهجوم) .

كان لينين ألين كثيراً مما في خطابه في المؤتمر ، إلا أنه لم يقلل قط من تحديده وحسمه أثناء هذا الحديث ، وسعى إلى التغلب على مناهضة التكتيك البلشفي الصحيح الوحيد الذي لم يستطع حتى لينين نفسه أن يكسب النصر له في المؤتمر الثالث إلا بجهود كبيرة .

تحدث لينين بوضوح كبير عن أن من الضروري كثيراً :

التحليل المتقن للوضع ، والتقييم المحكم لتناسب القوى الطبقية ، والإعداد التكتيكى الجيد إلى الانتفاضة المسلحة ، وأكد بشكل خاص على أنه لا يجوز الانسياق إلى استفزاز العدو الطبقى ، ولا يجوز التضحية بطليعة البروليتاريا فى نضال يسعى العدو الطبقى إلى إثارته فى ظرف ملائم له) .

ولعل هذا الكلام لا يوضح الأمر جيداً ، إلا أن التعليق الذى كتبه المؤرخون السوفيات على المقال يوضحه ، وانتبه إلى أن الكتاب مطبوع بموسكو فى طبعته العربية التى ننتقى منها ، فهو يمثل الرأى الحقيقى للحزب الشيوعى . يقولون :

(كان أنصار نظرية الهجوم التى أيدتها الغالبية اليسارية للجنة المركزية للحزب الشيوعى الألمانى الموحد يعتبرون تكتيك الهجوم : التكتيك الوحيد الصحيح فى أى موقف بغض النظر عن الظروف السياسية الملموسة ، ودفعوا العمال إلى طريق انتفاضة فى غير أوانها ، وقللوا من ضرورة قيام الحزب بعمل يومى أطول بين جماهير الطبقة العاملة الواسعة ، كما لم يراعوا كثيراً المقدمات الموضوعية لحركة الجماهير .

وقد أفادت البرجوازية الألمانية من نظرية الهجوم مستفزة حركة البروليتاريا الألمانية فى لحظة غير ملائمة لها لغرض القضاء على البؤرة الثورية للحركة الشيوعية فى ألمانيا الوسطى . فى آذار (مارس) 1921 أذخلت وحدات بوليسية إلى منطقة ألمانيا الوسطى

التى شملتها حركة إضرابات ، وقد ردّ العمال بإضراب عام تحول إلى انتفاضة مسلحة ، وفى يوم 24 آذار دعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الألمانى إلى إضراب عام ، إلا أنها لم تتلق تأييداً تاماً من البلاد كلها ، فسحقت الانتفاضة المعروفة فى ألمانيا الوسطى بسرعة ، وكانت نظرية الهجوم موضع نقد شديد فى المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية ، وأدينت فى مقررات المؤتمر) (1) .

وما لم يقله هؤلاء المؤرخون عن مجرى التاريخ بعد ذلك أبلغ فى الموعظة ، إذ أن الحزب الشيوعى الألمانى كان أقوى الأحزاب الشيوعية فى العالم أجمع ، لنشوئه فى أرقى وأكبر بيئة عمالية متقدمة فى العالم ، وكان يملك طبقة من الكوادر القيادية المثقفة أوسع من مثيلتها فى الحزب الشيوعى السوفياتى الذى يقوده لينين نفسه ، ولكن ضربته هذه بعد تهوره ، ولّدت فراغاً سياسياً فى ألمانيا استغله النازيون ، فتقدموا على حسابه ، وضربوه ثانية وكبتوه ، فضعف ، بل انمحق حتى اليوم فى ألمانيا الغربية ، وليست عبرة وجوده فى ألمانيا الشرقية كبيرة ، لاستناده إلى الحراب الروسية استناداً كاملاً .

فافهم دلالات التاريخ أيها الأخ الداعية المسلم ، فإنّا نريدك أن تكون عاملاً بقياس وتقدير ، وليس صحيحاً أبداً أننا نريدك أن تكون متردداً ونعوذ بالله ـ كما تعوذ ـ أن تكون جباناً .

---

(1) كتاب (خالد إلى الأبد صـ 229/ 3000، طبعة دار التقدم بمسكو .